القرية في شعر محمود حسن إسماعيل

أ.د. عبد الرحيم الكردي

أستاذ الأدب الحديث والنقد – كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة قناة السويس

الملخّص:

ولد محمود حسن إسماعيل في قرية النخيلة على الضفة الغربية للنيل جنوب أسيوط بصعيد مصر، ونشأ كما ينشأ سائر أبناء الفلاحين الفقراء، لا مأوى لهم إلا أكواخ يقيمونها مما تنبته الأرض الطيبة من أعواد الحطب الجافة التي تشبه أجسادهم النحيلة، يعملون جماعات يغنون، يبثون أتراحهم وأفراحهم مواويل حزينة على أنغام الطبيعة، على أنين السواقي وهديل الحمام ونعيق البوم والغربان وزقزقة العصافير.

وكانت القرية بناسها وحيواناتها وطيورها وزروعها وإيقاعاتها ذات أثر كبير في شخصية محمود حسن إسماعيل وفي شعره، فهي النبع الذي ملأ غدير ذكرياته، والبوتقة التي صاغت هياكل أفكاره وأخيلته وثقافته، لذلك تعد أشعاره معجمًا أو سجلاً لكل ما تحتويه القرية من كائنات صغيرة أو كبيرة، وهذا المعجم ليس مجرد كلمات أو صور بل مشاهد محملة بالمشاعر الحية والحقيقية.

والقرية المصرية في الصعيد تختزن موروثًا أسطوريًا عجيبًا انتقل تلقائيًا إلى شعر محمود حسن إسماعيل، فالنيل في التفكير الأسطوري الشعبي ليس مجرد مجرى مائي بل هو كائن حي، متيقظ، والنداهة عروس تنادي الأطفال في قاع الترعة، والفقر رجل عجوز محدودب الظهر كالقرد له قرنان، والشمس تأتي للأطفال بأسنان جديدة وتأخذ منهم الأسنان القديمة، والحائط له أذنان، واليمامة نمَّامة، والغراب حرامي، والحمار بالليل عفريت أحد المقتولين.

ومما ورثه محمود حسن إسماعيل من الريف ظاهرة الألقاب، ووظفها توظيفًا بديعًا في شعره. والطبيعة عنده ليست مجرد مخزن للصور والمعارف بل هي النبع الذي يصل منه إلى الإنسانية ويعبر به عن آلامها وأشواقها.

الكلمات المفتاحيّة:

النخيلة، أكواخ، الأرض الطيبة، التفكير الأسطوري، أعواد الحطب، الطبيعة، السواقي، المعجم، الشعبي، الألقاب.

The Village in the Poetry of Mahmoud Hassan Ismail

Prof. Abdul Rahim Kurdi
Professor of Modern Literature and Criticism,
Faculty of Arts and Humanities, Suez Canal University

Abstract:

Mahmoud Hassan Ismael was born in the village of Nakhaila on the West Bank of the Nile, south of Assiut, in Upper Egypt. He grew up, just like other poor peasants, homeless, except for the cottages they set up from the dry wood sticks that resemble their thin bodies. Working in groups, the poor peasants used to sing mawāwīl or sad traditional songs in which they express their their sorrows and joys in harmony with the music of nature such as the groaning of waterwheels, the cooing of pigeons, the hooting of owls, the screaming of crows and the singing of birds.

The village, with its inhabitants, animals, birds, plantations and rhythms, had a great influence on Mahmoud Hassan Ismail's personality and poetry. It is the source of his memories and the place that shaped the structures of his thoughts, imagination and culture. Ismail's poetry is like a dictionary or a record of all the small and large objects that the village contains. This dictionary is not just a record of words or images, but a record of scenes loaded with live and real emotions.

The Egyptian village in Upper Egypt stores an amazing mythical legacy that automatically moved to the poetry of Mahmoud Hassan Ismail. In the mythical folklore, the Nile is not just a watercourse but a lively, alert organism; El Naddaha is a genie who calls children to the Nile, most likely to their deaths; poverty is an old man huddled back who look like a monkey that has two horns; the sun takes away children's old teeth in exchange for new, white teeth; the walls have ears; the dove is a taleteller; the crow is a thief; and at night the donkey is an ifrit or a spirit of a murdered victim.

Mahmoud Hassan Ismail inherited the phenomenon of titles from the countryside and employed it cleverly in his poetry. Ismail's nature is not just a store for photos and knowledge; it is his way to express humanity's pains and desires.

Keywords:
Nakhilah, cottages, good land, mythical thinking, wood sticks, nature, waterwheels, dictionary, popular, titles

ولد محمود حسن إسماعيل في قرية النخيلة على الضفة الغربية للنيل جنوب أسيوط بصعيد مصر، ونشأ كما ينشأ سائر أبناء الفلاحين الفقراء، معفرة أيديهم بتراب الأرض، ملوحة وجوههم بصهج الشمس في الصيف وزمهرير البرد في الشتاء، لا مأوى لهم إلا أكواخ يقيمونها بأيديهم مما تنبته الأرض الطيبة من أعواد الحطب جافة التي تشبه أجسادهم النحيلة، جنى الباشوات ثمارها الطيبة، و بيوت كمفاحص القطا من الطين يقيمون فيها أهليهم وذراريهم المباركة جدًا، يعملون جماعات يغنون، يبثون أتراحهم وأفراحهم مواويل حزينة على أنغام الطبيعة ، على أنين السواقي وهديل الحمام ونعيق البوم والغربان وزقزقة العصافير .

نشأ محمود حسن إسماعيل كما تنشأ الطيور والفراشات ابنًا للطبيعة يعرف لغة الطير والزهر، ويحس بما يعتمل في قلوبها، على شط النيل الجميل، يسمع ما تقوله الريح للنخيل، يسبح الطير أم يغني ،ويشرح الحب للخميل ، ويرى الأغصن صبايا جميلات سمراوات شربن من خمرة الأصيل .

١- كانت القرية ذات أثر كبير في شخصية محمود حسن إسماعيل وفي شعره ، فهي النبع الذي ملأ غدير ذكرياته ، والبوتقة التي صاغت هياكل أفكاره وأخيلته وثقافته ،لذلك يقول عن نفسه في تعليقه على ديوانه الأول " أغاني الكوخ" : " لم تكن الروح التي أوحت أغاني الكوخ فيما طالعت من شعر الطبيعة بهذا الديوان وليدة عام أو عامين أو أكثر ،ولكنها في الحقيقة وليدة شباب كامل ، حضنته الطبيعة في ريف مصر منذ الطفولة اللاهية إلى عهد قريب تغلغلت به روحي الشابة في جميع مظاهر الطبيعة وأسرارها ، حتى امتزجت بها الامتزاج الذي أورثها الحنين الدائب إلى تلك الحياة الهادئة بين الحقول المصرية الممرعة ، والقرى النائمة على ضفتي النيل الزاخر ، وخلفت في دمي الشوق الملح إلى الحياة بين رباها وأزهارها "

٢- لذلك كان الريف المصري هو المنجم الذي كان يستخرج الشاعر منه مواد تعبيره ، لذلك تعد أشعاره معجمًا أو سجلاً لكل ما تحتويه القرية من كائنات صغيرة أو كبيرة ،فقد كتب عن الكوخ والفلاح والنيل والنخيل والساقية وسنبلة القمح وزهرة الفول والنورج والثور والفتيات الريفيات والغراب والضفادع والبومة والمؤذن والراعي وزهرة القطن .....الخ

هذا المعجم ليس مجرد كلمات أو صور بل مشاعد حية وحقيقية يستحضرها الشاعر بكل مافيها من ملامح دقيقة أثناء حيويتها وسخونتها الظاهرية والنفسية،

الفردية والجماعية، فيجعل القارئ لا يشاهدها بعينيه فقط بل يعيشها بكل كيانه النفسي، واقرأ معي هذا المشهد الذي يصور وحدة ساكن الكوخ وهو وحيد كأنه عابد في صومعته التي التوت أو انحنى ظهرها من شدة الفقر، تنعق عليه البوم في ظلمات الليل الدامس ،ويشتكي الحمام عند الضحى بلواه ،ويترحم عليه ،ولا سامر في الليل يؤنسه إلا غنيماته والنجم والبقرة والكلب، صبور يملك مخزونًا من الحكمة والوفا ورثها له زمانه الغابر، وهو صديق لكل كائنات الطبيعة من حيوان وطير يستقي أنغامه الجميلة من مناغاتها، وإذا غفت أعينهم تولى الكلب حراستهم :

ضُمَّت حواشيه على عابدٍ *** مِحرابُه من فاقةٍ دائرُ

ينعى عليه تحت جنح الدجى *** شيخ الليالي بومُها الصافرُ

ويشتكي بلواه رأدَ الضحى *** حمامُهُ المسترحم الذاكرُ

سماره في الليل أنعامه *** والنجم والنابح والخائرُ

تمليه من وحي الوفا حكمةٌ *** ألوى عليها دهرهُ الغابرُ

هذي تناغيه وذي تجتلي *** من صوته ما يجتلي السامرُ

إن هب يشدو سحرًا بينها *** فاحطم مزاميرك يا زامرُ

أو راح يزجي أغنيات المسا *** ضُيعت يا شعر ويا شاعرُ

رهبان عبادون حازوا الهدى *** ليلاً فما في ديرهم كافرُ

من لم يُقم منهم صلاة الدجى *** في النوم أداها له الساهرُ

يُغفون والكلب على مهدهم *** سهرانُ لا يُغفي له ناظرُ

يصرخ إن غرته أطيافه *** أو راعه بالسطوة الخاطرُ

إن غاب نجم فوقهم سُحرةً *** فهو على أرواحهم حاضرٌ

كل شيء في الريف ينبض بالحياة ، فالفلاح البائس في ركنه عريان من الضنك والفقر، اكتافه تحمل زروع النيل ولا يحصل من كده شيئًا ولا رعاية ، لذلك فإن السواقي تبكي أشجانه وما بكاه مرة شاعر، فإذا استيقظ عند الفجر ألقي عليه الديك

أرجوزة يغني بها صباحه السافر، وإذا سار في الطريق واشتد عليه الحر تهديه النخلة أطيب الجنى ، وتحنو عليه وعلى كل عابر بظلها ، بينما النخيل التي في القصر مكشرة مرهوبة ، وإذا أقبلت الفلاحة العذراء حاملة جرتها فإن موج النيل الهادر يصغي إليها ويحنو عليها حنو الملاك الطاهر، لأنها فتاة طاهرة قدسية القلب .

كان الحنين إلى حياة الريف ملازمًا له حتى وهو في القاهرة، لأن الريف كان يعيش في داخله، فهو يفكر بمكوناته التي استقرت في رأسه، ويقيس الجمال بمعاييره، فهو يرى نخيل الجزيرة في متنزهات القاهرة وقصورها غير نخيل الريف، يراه في المدينة نخيلاً ملحدًا كأنه ينبت في محاريب شياطينٍ رجيمة ، بخلاف نخيل الريف الصوفي التقي المتبتل، يقول عن نخيل الريف:

وأطرقت نخلة قامت بتلعته *** كأنها زاهد في الله يفتكر

بينما يقول عن نخيل القاهرة :

وألحد صوفي النخيل فما أرى *** به هزةً كانت إلى النسك تنتمي

لقد كان رعاش الأيادي تبتلاً *** إلى الله لم يدنَس ولم يتأثم

كأن القصور الشامخات بأرضها *** محاريبُ جنٍ في مزار محرمِ

لذلك فإن المعجم الريفي لا يفارق الشاعر في أي مرحلة من مراحل حياته الشعرية، فهو عندما عندما يدعو إلى الثورة واليقظة في العقد الخامس من عمره، وبعد أن ترك الحياة في الريف يظل يفكر بالمعجم الريفي نفسه: (الأفاعي والسواقي والحقول والزروع والثماروالذئاب والمناجل والحصاد والتراب) يقول :

تناديكم صرخةٌ في الشعاب ***عليها تفح أفاعي الخراب

نواعيرها ولولت في الحقول *** فقت من الويل قلب الهضاب

زرعتم وعدتم بدمع الهشيم *** وأثماركم قسمتها الذئاب

وعادت مناجلكم للجياع *** وأيديكم بحصاد التراب

وفي قصيدته التي مدح بها جمال عبد الناصر وسماها الجلاء أو الفناء يقول:

والنخل جلله الوقار كأنه *** شيخ إلى حرم المصلى سائر

والسنبل النشوان في مرح الرُّبى *** لم تبق فيه للغناء معاذر

حتى في تصويره للحرب العالمية الثانية يستخدم معجم الطير والزهر والأعشاش والماء، يقول:

خرساء لا طائرٌ فيها ولا ولا نغمٌ *** جرداء لا أيكة فيها ولا زهر

الطير فيها شياطين مجنحة *** من الحديد صدىً ألحانها شرر

٣- والقرية المصرية في الصعيد تختزن موروثًا أسطوريًا عجيبًا انتقل تلقائيًا إلى شعر محمود حسن إسماعيل، فالنيل في التفكير الأسطوري الشعبي ليس مجرد مجرى مائي بل هو كائن حي، متيقظ ويمكن أن ينام ساعة واحدة في العام، من يدركها ويشرب من مائه ليلاً وهو نائم يصبح له فجأة قوة خارقة ،والقطط التي لا ذيل لها أرواح أطفال توائم، واللبانة روح خفية تطوف بعد المغرب على البيوت لتحول اللبن رائبًا، والنداهة عروس تنادي الأطفال في قاع الترعة، والفقر رجل عجوز محدودب الظهر كالقرد له قرنان، والشمس تأتي للأطفال بأسنان جديدة وتأخذ منهم الأسنان القديمة، والحائط له أذنان، واليمامة نمامة، والغراب حرامي، والحمار بالليل عفريت أحد المقتولين .

في ظل هذا التفكير الأسطوري كل شيء في القرية حي يسمع ويتكلم ويتحرك ويشارك في الحياة سلبًا أو إيجابًا، الزرع والشجر والحيوانات، مما يجعل من ينشأ في ظل هذه الثقافة يعيش في عالم سحري مسكون بالكائنات الحية، والخيال الشعري قريب من التفكير السطوري، فالشاعر يصنع الأساطير ويتحكم فيها ، لذلك نجد محمود حسن إسماعيل، يرى النخلة في الريف رجلًا صوفيًا تقيًا يقدم خدماته للناس، ويراها في المدينة صوفيًا ملحدًا ، بينما يراها في القصر مكشرة عابسة، ويسمع الريح على شط النيل وهي توشوش النخيل ، ويرى القيظ وهو يقعي على أسوار البيوت، ويطل بوجهه الحانق المحتدم بالغضب، ويشعر بالرق غبارًا ينفضه من فوق جبهته، ويسمع الغناء وهو يولول من الأسى، ويغرف من الدعاء حفنة من دمائه تدمدم بين كفيه، كما أن كلاً من التفكير الأسطوري والخيال الشعري يحول المعنويات إلى محسوسات، أو يجعل الإنسان يفكر بالمحسوسات، فالمنايا لها دخان، والبؤس له ثمار تجنى ، والسواقي لها دموع ، والظلم سائل يشرب، والسنبل نشوان من الفرح، والنخل شيخ له وقار.

٤- ومما ورثه محمود حسن إسماعيل من الريف ظاهرة الألقاب، ففي القرية المصرية في الصعيد ولع شديد بالتلقيب، فلا يكاد يخلو رجل في القرية من التلقيب الحسن أو القبيح، بل يطال التلقيب في كثير من الأحيان الحيوانات والأماكن والشجر، فهذا الرجل (أبو راسين)، وتلك المرأة (هتلر)، وهذه البقرة (الدكر)، وهذا المكان (أبو النوم)، وهذه الترعة اسمها (النعسانة) وغالبًا ما يكون اللقب معبرًا عن شيء ، أخذ محمود حسن إسماعيل هذه الظاهرة ووظيفها توظيفًا بديعًا في شعره، بل استخدها أحيانًا في عناوين قصائده، فالساقية : القيثارة الحزينة، والثور: عاهل الحقل، والفراشة: راهبة الضحى، والأرض: أم الصخر، والغراب: راهب النخيل، والهلال : الأحدب النشوان، والقمر: ابن الليل ، والنواتية : عبيد الرياح ، والنيل: أبو الدنيا، وعرفات: شيخ الجبال ، والديك: مؤذن الفجر، وحاملة الجرة : عروس النيل، والنعش زورق الموت ،وخصلة الشعر : الغدير الذهبي ، والغريقة: العذراء الشهيدة، والبومة : الشيخة العابسة ، وزمارة البرسيم : الناي الأخضر .

٥- ولم يكتف محمود حسن إسماعيل بهذا التأثر بالريف في أشعاره بل حاول أن يصوغ منه مذهبًا فنيًا يقوم على الامتزاج بالطبيعة، لذلك فإنه ينعى على بعض الشعراء المصريين انشعالهم بمحاكاة القدماء والسطو على أفكارهم وصيغهم، لأن أعمالهم الشعرية في هذه الحالة سوف تكون خاوية وجافة ومتهالكة مهما بلغت جودتها في السبك والحبك، لأنها ناضبة الروح جافة الطبع، كما ينعة على بعضهم الآخر انزواءهم على انفسهم في شعر شخصي النزعة، ينظمون في كل ماليس له صلة بالبيئة أو الفن، محاكين وناقلين ذلك من آداب اللغات الأجنبية، ويعدون ذلك عبقرة وتجديدًا، بينما الشعر الحقيقي كما يرى هو شعر الطبيعة، فالشاعر والطبيعة - كما يقول - روح واحدة ممتزجة .

٦- والطبيعة عند محمود حسن إسماعيل ليست مجرد مخزن للصور والمعارف بل هي النبع الذي يصل منه إلى الإنسانية ويعبر به عن آلامها وأشواقها، لأنه يرى أن كل إنسان في الحياة شاعر بالجاذبية الخفية بينه وبينها، فيرى في نواح الساقية أصداء الآلام الإنسانية، ويرى في ذلك الثور المستعبد الذي يلهبه الفلاح بسياطه صورة من وطأة القدر الذي يكبل الإنسان ويسوقه إلى مصيره المجهول .